المصاحبات النّصّيّة في ديوان " مناجاة الشموع " لعبد الوهاب الشيخ خليل

الدكتور: أنس بديوي*

كلية الآداب– جامعة حماة

الملخّص

قدّم البحث مقاربة نقديّة للمصاحبات النصيّة **(Paratexts)**، في ديوان " مناجاة الشموع " للشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، مؤسِّساً تلك المقاربة على فاعليّة حضور العتبة النصيّة بوصفها أحد موجِّهات التلقّي الرئيسة. و تتحدّد دلالة مصطلح المصاحبات النصيّة بإحالته على نصوص معرفيّة تحيط بالنصّ المتن، من مثل: اسم المؤلف، و العنوان، و الأمارة التجنيسيّة، و كلمة الناشر، و الإهداء، و المقدمة، و التصدير، و الاستهلال، و العناوين الداخلية.

تجسّدت المصاحبات النصيّة في المجال التطبيقيّ للبحث، بالعنوان، من خلال تمظهريه الكليّ للديوان، و الجزئي للقصائد و لصَنعة الديوان. و من المصاحبات النصيّة التي وقف عليها البحث الغلاف الخارجي للديوان، و المقدمة، و شهادة الأقران، و توطئة بعض القصائد، و التاريخ المقيّد لإنتاج بعضها أيضاً. و قد بدت تلك المصاحبات النصيّة ذات ارتباط وثيق، من منظور البحث، بالنصّ المتن، إذ أضفت ثراء دلاليّاً على سياق التداول القرائيّ، يفتح آفاق التلقّي النقديّ على رحاب جديدة و أمداء واسعة.

الكلمات المفتاحيّة:

النصّ – المصاحبات النصيّة – مناجاة الشموع – عبد الوهاب الشيخ خليل .

* أستاذ النقد الأدبيّ المساعد، في قسم اللغة العربيّة بكلية الآداب– جامعة حماة.

Paratexts in Abd al-Wahab al-Shaikh Khlil's "The Candles'Appealing"

Dr. Anas Bdiwe*

Abstract

The research presented a critical approach to the textual accompaniments in the Diwan " The Candles'Appealing " by the poet Abd al-Wahab al-Sheikh Khlil, basing this approach on the effectiveness of the presence of the textual threshold as one of the main directives of reception.

The meaning of the term textual accompaniments is determined by referring it to knowledge texts surrounding the body text, such as: the author's name, title, naturalization emirate, publisher's word, dedication, introduction, export, initiation, and internal addresses.

The textual accompaniments were embodied in the applied field of research, by the title, through its total manifestation of the Diwan, and partial to the poems and the work of the Diwan. Among the textual accompaniments on which the research was located are the outer cover of the Diwan, the introduction, the testimony of peers, the introduction to some poems, and the history of the production of some of them as well. These textual accompaniments seemed closely related, from the research perspective, to the text, as they added semantic richness to the context of the reading circulation, opening the horizons of critical reception to new horizons and wide ranges.

Key Words: Text - Paratexts - The Candles'Appealing - Abd al-Wahab al-Shaikh Khlil

* Assistant Literary Criticism Professor in the department of Arabic language – Hama University.

مقدّمة:

يفتح الشعر آفاق التجربة الإنسانيّة على أمكنة و خفايا و مواضع، قلّما نجدها في غيره، فهو تخييل خلاّق، تنظِّم بوساطته الذات الشاعرة صلتها بما هو خارجها؛ فيبدو موقفها من العالم حاملاً فكريًّا و موضوعيًّا يؤسّس للنصّ حدود إدراك الموجودات، و ربّما شكّلت هذه النظرة منطلقاً فلسفيًّا، وُسم الشاعر وفقه بالمبدع، و في بعض الأحيان، وصف بالمخترع و المبتكر، الذي يؤسّس وجوداً نصيّاً، ترسمه القريحة بما استودعتها تجربته الجماليّة، من رصيد معرفيّ و فنّي.

و لعلّ ميزة الشاعر تتأتّى من تطوير ذلك الرصيد، و تنويع روافده التي تمدّه بأسباب القوّة و استمرار العطاء؛ إذ تجعله قادراً على تجديد أدواته الفنيّة، و رفدها بما يمكّن لها ديمومة التفرّد و التمايز عن الخطاب العاديّ؛ إذ الشعر، في جوهره، ابتعاد عن مألوف استعمال الناس للغة. و تبدو ضرورة تطوير الأداة الفنيّة منساقة لضرورة تطوير المنظورات و المحدّدات، بما تقدّمه المعارف و الخبرات الجديدة من إغناء و إثراء، على غرار ما قدّمه الدرس اللسانيّ من توسيع لمفهوم النصّ. و يمكن أن نقيس على هذا الفعل ما اكتسبته القصيدة الشعريّة، بتطوّر صناعة الكتاب و الطباعة، من ميزات، أبدلت في بنيتها النصيّة، من بنية إنشادية شفاهيّة، إلى بنيّة بصريّة منظورة، في بعض التجارب، و هو إبدال اشتغل عليه الخطاب النقديّ المعاصر من منظور خطاب العتبات النصيّة.

مشكلة البحث:

تتأسّس مشكلة هذا البحث انطلاقاً من محاولة الإجابة على ثلاثة أسئلة رئيسة، هي:

– هل الشاعر على وعي تامّ بفاعليّة المصاحبات النصيّة في توسيع مفهوم النصّ؟ أم النصّ عنده متن، لا يُضاف إليه ما هو خارجه، لتمكين دلالته، و تحقيق مغزاه و معناه؛ فهو مكتفٍ بذاته؟

– ما دور المصاحبات النصيّة في توجيه التلقّي النقديّ للنصّ الشعريّ؟

– كيف تشتغل المصاحبات النصيّة على تكوين الفضاء الدلاليّ للنصّ؟

هدف البحث:

يهدف البحث إلى تقديم مقاربة نقديّة تطبيقيّة لمدوّنة شعريّة معاصرة، لم تُدرس دراسة نقديّة معمّقة، في حدود اطّلاع الباحث، بتوسّل أدوات إجرائيّة تعتمد بيان أثر المصاحبات النصيّة في رفد الدرس النقديّ بما يسهم في تنويع حقوله المعرفيّة، و بما يعزّز تواصل المتن النصيّ بهامشه.

الدراسات السابقة:

تتوزّع الدراسات السابقة، ذات الصلة المباشرة بهذا البحث، على مجالين اثنين، **المجال الأوّل** يُعنى بالبحوث و الدراسات التي تناولت الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، من حيث تجربته الشعريّة، و أثره في الساحة الأدبيّة، في بيئته المحليّة – مدينة حماة–، أو في خارجها. و تبدو إشارة أحمد بسام ساعي من الإشارات الأولى نقديّاً، إلى تجربة الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل– الذي لم يكن قد أصدر ديوانًا شعريّاً بعد، و طبيعة بحث ساعي الإجرائيّة أوصلته إلى تجربة الشاعر – و قد ضمّه إلى حامد حسن و محمد منذر لطفي و وجيه البارودي و وليد قنباز و محمد الحريري و غيرهم، ممّن بدت في نصوصهم ملامح الرومانسيّة العربيّة، " كما ظهرت في دعوات مدارس الشعر المصري الحديث، كجماعة الديوان و مدرسة أبولو، [فمالت] لغتهم نحو السهولة و البساطة و الانفتاح مع احتفاظها بزمام الموازنة بين التراث و المعاصرة "[1]. و إذا تجاوزنا الإشارات الاحتفائيّة بتجربة الشاعر[2]، بعد صدور ديوانيه " مناجاة الشموع"[3]، و " سماط الروح"[1]، فيمكن أن

1 – ساعي، أحمد بسام: حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1978، ص196.

2 – للوقوف على بعض مظاهر الاحتفاء بتجربة الشاعر، و لا سيّما ما كان في مهرجان تكريمه، يمكن العودة إلى:

– مجموعة من الباحثين: مع الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، أدباء مكرّمون (35)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.

3 – صدر عن المطبعة الحديثة، حماة، 1978.

نعد بحثي عبد الفتاح محمّد " المرأة في شعر عبد الوهاب الشيخ خليل "[2]، و رضوان السح " الشعر و قيمة الصدق في سماط الروح "[3]، من أبرز ما كُتب عن تجربة الشاعر، و إن لم تغب عنهما بعض جوانب الاحتفائيّة أيضاً.

و تجدر الإشارة إلى كتابي " أسماء على ضفاف العاصي "[4]، و " عبد الوهاب الشيخ خليل شاعر و إنسان من ربوع العاصي "[5]، لراتب سكر، و فيهما سرد فنيّ لسيرة الشاعر، و إفادة معرفيّة ثقافيّة من مخزون ذاكرته، التي جعلت منه راوية مدينته حماة.

و **المجال الثاني** يختص بالموقف النقديّ من المصاحبات النصيّة، و هو موقف تأسّس جوهر مقولاته على الأثر الذي فرضه كتاب " عتبات " لمؤلّفه " جيرار جينيت "، الذي تداولته المدوّنة النقديّة العربيّة الحديثة، في الأعمّ الأغلب، عبر ما قدّمه عبد الحق بلعابد في كتابه " عتبات (جرار جينيت من النصّ إلى المناص)"[6]، بتقديم سعيد يقطين، و هذا الكتاب، بحسب بلعابد، هو قراءة " لكتاب (عتبات) لـ " جينيت " قراءة ترجمية سالكة مرتبة من مراتبها و هي الفهم و الإفهام (بتعبير الجاحظ)، و زيادة في المعنى بالتفاهم (بتعبير غادامير)"[7].

مصطلحات البحث و تحديداته:

1 – صدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

2 – ينظر: – مجموعة من الباحثين: مع الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، مرجع سابق، ص87– 107.

3 – ينظر: المرجع نفسه، ص60–75.

4 – دار المنار، صنعاء، 1999.

5 – دار أبي الفداء العالمية، حماة، 2011.

6 – صدر عن منشورات الاختلاف، الجزائر، و الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008.

7 – المرجع نفسه، ص4.

- المصاحبات النصيّة (Paratexts):

ثمّة نصوص معرفيّة تحيط بالنصّ المتن، " هي (اسم المؤلف، العنوان، الأمارة التجنيسية، كلمة الناشر، الإهداء، المقدمة، التصدير، الاستهلال، العناوين الداخلية) "[1]، و قد استُعملت مصطلحات عدّة لتعبّر عمّا هو خارج المتن النصّيّ، كان أكثرها تداولاً ، العتبات النصيّة، و المصاحبات النصيّة، و النص الموازيّ.

و هذا التعدّد المصطلحيّ مبنيّ على اختلاف تلقّي مصطلح " جيرار جينيت " **(Paratexts)** عند النقّاد العرب، بحسب ثقافة الناقد، و ذوقه الجماليّ، و طبيعة تكوينه المعرفيّ. و قد آثرنا استعمال مصطلح " المصاحبات النصيّة "؛ لتفعيل دلالة السابقة اللغويّة **(Para)** في تحقيق دلالة المصطلح؛ إذ تعني، في أصلها اليونانيّ، ما هو بجانبك و مجاورك، فتحيل دلاليّاً على حقل المصاحَبة و الملازَمة، و تؤدّي وظيفة الإشارة إلى الاستقلال عن أصل، لكنّه ليس استقلالاً كاملاً تامّاً؛ و بذلك ترتكز دلالة المصطلح على المصاحَبة، و ما فيها من الموافقة، فلا يقصي منطق الخيار الاصطلاحيّ هذا قصديّة المؤلف، أو أثرها في توجيه التلقّي، كليّاً أو جزئيّاً، و يجعل النصّ " قابلاً للتداول، إن لم يكن وفق مقصدية المؤلف، فعلى الأقلّ ضمن مسار تداولي، لا ينزاح كثيراً عن دائرتها"[2].

منهج البحث:

يقوم البحث بتتبّع ظهور المصاحبات النصيّة في المدوّنة المدروسة، و هي ديوان الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل الموسوم بعنوان : مناجاة الشموع، و يقف على آليّة تشكّلها اللغويّ، إن كانت مصاحباً لغويّاً، و طريقة بنائها التشكيليّ، إن كانت غير لغويّة. ثمّ يحلّل كيفيّة اشتغالها، و فاعليّتها في التلقّي النقديّ، و توجيه مسارات القراءة، التي تستحضر إلى مجالاتها ما هو ثقافيّ فكريّ، بالإضافة إلى ما هو جماليّ فنّيّ.

1 - أحمد، مرشد: المصاحبات النصية في روايات نبيل سليمان، دار الحوار، اللاذقية، 2018، ص11.

2 - المرجع نفسه، ص12.

العرض:

انفتحت الشعريّة العربيّة الحديثة على المنجز النقديّ للآخَر، محاولة دخول مناطق المسكوتِ عنه نقديًّا في ثقافتنا العربيّة، و لا سيّما في الأعمال الأولى التي تأسّس عليها التنظير النقديّ القديم، و لهذا مسوّغاته ، و لعلّ من أبرزها أنّ الشعر فعلاً و ممارسة، لا تستبدّ به حضارة إنسانيّة دون أخرى، مع الاحتفاظ بخصوصيّة النوع ، في سياق تأطير النظريّة الأدبيّة، و فاعليّة الامتداد الزمنيّ في بلورتها. و بالإشارة إلى السياق الزمنيّ يلحظ الدارسون فاعليّة التطوّر في الممارستين الإبداعيّة و النقديّة.

إنّ الانتقال من الشفاهيّة إلى الكتابيّة شكّل منعطفاً جديداً في الشعريّة العربيّة؛ إذ بدا الاهتمام بإبدالات البنيّة النصيّة المدوّنة أكثر وضوحاً من ذي قبل، في بعض الدراسات القديمة التي أخذ يتراجع فيها البحث عن العناصر الشفاهيّة، لاختلاط طبيعة الذاكرة التي ستحفظ الموروث؛ و تأسيساً على ذلك اهتمت حركة البحث و الجمع و التأليف و التصنيف بأدوات التدوين و طرقه، و بمهارة استعمالها عند المدوّنين. و قياساً على ذلك يمكن أن نؤسّس تركيزاً بحثيّاً عن أثر التطوّر التقنيّ في صناعة المدوَّن، كتاباً أو ديواناً أو غير ذلك.

و ما نودّ الإشارة إليه أنّ العدول إلى الاهتمام بما هو خارج المتن النصيّ لم يكن تأثّراً صرفاً بالدراسات الغربيّة، على ما لها من أثر فعّال في ذلك، و يكاد يكون هذا الجانب من النظريّة النقديّة الغربيّة الحديثة من أكثر عناصرها اتّفاقاً مع روح المنظور النقديّ العربيّ؛ لأنّ طبيعة الإبداع الإنسانيّ، و أدوات التعبير عنه تقنيّاً، هما من المشترك العامّ بين الشعوب جميعها.

تتجسّد المصاحبات النصيّة في مجال مقاربتنا التطبيقيّة– و هي ديوان " مناجاة الشموع " للشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل– بالمصاحبات الآتية:

– العنوان:

يعدّ العنوان من أبرز المصاحبات النصيّة، التي وقف عليها الدرس النقديّ المعاصر، و لا سيّما بعد الأثر الذي تركه " جيرار جينيت " في هذا الحقل المعرفيّ. أمّا الدرس النقديّ العربيّ فبدا منطلقه الاشتغاليّ على العنوان بعيداً عن ذلك التأثّر بالوافد الغربيّ، كما أبرزت بواكيره، ممثّلة بكتاب " العنوان في الأدب العربي النشأة و التطور " لمحمد عويس[1]، ثمّ غدا هذا النوع من الدراسات على اتّصال وثيق بما قدّمه النقد الغربيّ، كما تظهر بعض الجهود، مثل كتابي " سيمياء العنوان " لبسام قطوس[2]، و " في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية " لخالد حسين[3]، على سبيل المثال لا الحصر؛ لأنّ هذا البحث لا ينشغل بالتتبع البيبلوغرافيّ لمؤلّفات العنونة، أو المصاحبات النصيّة.

تتأسّس مسألة البحث في العنوان الإبداعيّ على موقعه من النصّ، و من ثَمّ ستعكس هذه الموقعيّة صلة العنوان بتنتيج الدلالة، أو فتح آفاقها، و ليس هذا من قبيل صرف النظر عن النصّ الأصليّ، بمقدار ما هو عدم إغفال للدور الذي تؤدّيه بعض الظواهر النصيّة التكميليّة المحيطة بالنص في تكوين فكرة أوليّة عنه، أو توجيه القراءات في مسارات معيّنة[4].

" مناجاة الشموع" هو **العنوان الخارجي** أو **الأساسيّ** للديوان الشعريّ الأوّل للشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، الذي تندرج في المدوّنة التي يشكّلها **عنواناتٌ فرعيّة** أو **داخليّة**، هي عنوانات قصائد الديوان.

و يتألف هذا العنوان الأساسيّ من دالّين لغويين هما: " مناجاة "، بما تحيل عليه من أسرار و أحاديث و بوح، و " الشموع " بما تحيل عليه من ضوء ناتج عن نار و احتراق

1 – صدر الكتاب عن مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988.

2 – صدر الكتاب عن وزارة الثقافة، عمّان، الأردن، 2001.

3 – صدر الكتاب عن التكوين للتأليف و الترجمة و النشر، دمشق، 2007.

4 – لحمداني، حميد: عتبات النص الأدبي(بحث نظري)، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، الجزء46، المجلد12، ديسمبر 2002، ص11.

و ذوبان. و العلاقة الإسنادية بين العنصرين اللغويّين المكوّنين للعنوان هي علاقة إضافة. و كأنّ في ذلك إشارة إلى دور تفجّر ينابيع الشعر و انبجاسها، من بين صخور احتراق النفس في أتون أسرارها، فكان الشعر مناجاة أخرجت السرّ إلى العلن فكانت قصائد هذا الديوان. و لعلّ في ذلك ما يسوّغ استعمال اللون الأحمر في كتابة العنوان، مع ما فيه من إشارة إلى الاحتراق، و ضوء الشمس، متداخِلاً بمساحات بيضاء قليلة و ضيّقة، مع ما تحمله من تعبير عن إفراغ ما في جعبة النفس من سواد، جعلها انتزاعه من مكانه نقيّة بيضاء.

و تبدو الصلة بين عنوان الديوان و عنوانات القصائد، صلة الجزء المعبّر عن الكلّ؛ إذ يسيطر على تلك القصائد نزوع إلى تعبير عن ألم دفين، هو بالمحصلة معاناة، استدعى سياق التعبير عنها مناجاة من نوع خاصّ، لأنّ تلك القصائد ذوب نفس و احتراق مشاعر، و هما الفلك الذي تدور فيه قصائد الديوان كلّها، مقتنصة لحظات الحبّ و الفرح ذوب نفس، أو منقادة إلى مواقف الحزن و الترح احتراق مشاعر.

– مصاحبات صَنْعة الديوان:

يتألّف ديوان " مناجاة الشموع " من ثمانية أقسام، سبعة منها صُنّفت بحسب الموضوعات، هي على التوالي: من الشعر القوميّ، و من الشعر الوجدانيّ، و من الشعر الاجتماعيّ، و من شعر الرثاء، و من شعر الإخوانيّات، و من وحي التعليم الابتدائيّ. و القسم السابع وسم بعنوان:" لوحات "، و هي أربع مقطوعات، ثلاث منها مؤلّفة من أربعة أبيات، و واحدة من ستة. و ربّما كانت هذه اللوحات، من منظور الشاعر، بمنزلة اللّوحة المؤطَّرة بمشهد مركزيّ واحد. و مع أنّ الغزل هو موضوعها إلاّ أنّها لم تدرج في القسم الموسوم بعنوان: من شعر الغزل، على الرغم من مجيئها في التصنيف بعده. و لعلّ هذا الأداء قصديّ؛ ليشير إلى التزامٍ بمصطلح القصيدة، التي لا تسمّى بذلك إلاّ إذا بلغت سبعة أبيات فأكثر، و لا شكّ أنّ الشاعر على وعي تامّ بدلالة مصطلح القصيدة.

و الملاحظ على التقسيم السابق أنّ عنوانات أقسامه مسبوقة بحرف الجر " من "، التي تحيل على معنى التبعيض؛ لتدلّ على انتقاء من " كمٍّ "، لجأ إليه الشاعر، فوضع ما يراه

مناسباً من إنتاجه الشعريّ بين يديّ القرّاء، فما كلّ ما يعتمل في الصدور يطرح على الناس في السطور، ليتأكّد أنّ ما بين أيدي القرّاء هو قصائد يبدو الشاعر– و فق التبعيض المشار إليه– راضياً عن مستوييها الفنيّ و الجماليّ.

أمّا القصائد الثلاث الأولى التي لم تندرج في تصنيفٍ– مع معالجتها موضوعاً واحداً، هو مفهوم الشعر– فقد جاءت بعد مقدّمة الديوان التي كتبها الأديب شوقي الكيلاني. و تضمر هذه النصوص الثلاثة خطاباً، يحدّد مفهوم الشعر، في منظور الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، ثمّ كيف يكون الشعر؟ و ما موقعه من الكلام؟ و هي مسألة مهمّة؛ إذ يتأسّس عليها الإنتاج النصّيّ. يقول في القصيدة الأولى الموسومة بعنوان " لا تحسبوا الشعر لغواً "[1]:

لا تحسبوا الشعر لغواً

فالشعر ذوب القلوبِ

و الشعر بستان حبّ

على طريق الحبيب

من مرَّ بالقرب منه

يفز بظلٍّ و طيب

يعانق الزهر بوحاً

من كلّ زاهٍ رطيب

و قد أتيتُ بشعري

إلى رياض الأديب

1 – الشيخ خليل، عبد الوهاب: مناجاة الشموع، ص11–12.

أهديه نفحة عطرٍ

من صبوتي و نسيبي

أهديه ذوب فؤادي

على اليراع الخصيب

إذا كانت الشعريّة– و هي مفهوم لا يتقيّد بفنّ الشعر خاصّة– تحدّد ما يجعل من الكلام شعراً، و من ثمّ تبحث في قوانين الإبداع[1]، لتمييز الشعر من غيره، بعدّه انزياحاً عن الاستعمال المألوف للّغة[2]، فإنّ موقف الشاعر هو المعيار الأمثل في تحديدها؛ لأنّ واقع الإبداع يضعنا أمام شعريّات عدّة، و هي متطوّرة المنظورات بتطوّر الإبداع، و كذلك هي متغيّرة بتغيّره؛ لذلك نراها تابعة للإبداع؛ إذ تنطلق منه. فشعريّة الكلاسيّة تختلف عن شعريّة الرومانسيّة، و هذه بدورها مباينة و مفارقة لشعريّة الحداثة، و هكذا الأمر غير قارّ مع شعريّات التجريب، و الإبدال في البنى النصيّة.

و شعريّة الكلاسيّة هي خيار الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، فعلى منوال مقولاتها نسج نصّه الشعريّ؛ و بهديٍ من نظريتها المعرفيّة أُنتجت الدلالة، و عُولجت الأغراض و الموضوعات؛ ليكون الشعر ترجمة الإحساس لغةً نابضة بالجمال و المتعة.

و خلاصة صنعة هذا الديوان محتوى، ذُكرت فيه عنوانات القصائد، و صفحة تصويبات تشير إلى الخطأ و مكان وجوده، و إلى الصواب. و في هذا دلالة على حرص الشاعر على تجويد ديوانه، و متابعته له، و احترامه و تقديره للقارئ الذي يبحث عن أداء مثاليّ في الإخراج و الضبط.

1 – جاكبسون، رومان: قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي و مبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص35.

2 – كوهن، جان: بناء لغة الشعر، ترجمة: محمد الولي و محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986، ص8.

- الغلاف و الشكل الخارجيّ:

يمثّل الشكل الآتي غلاف ديوان " مناجاة الشموع "، للشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل:

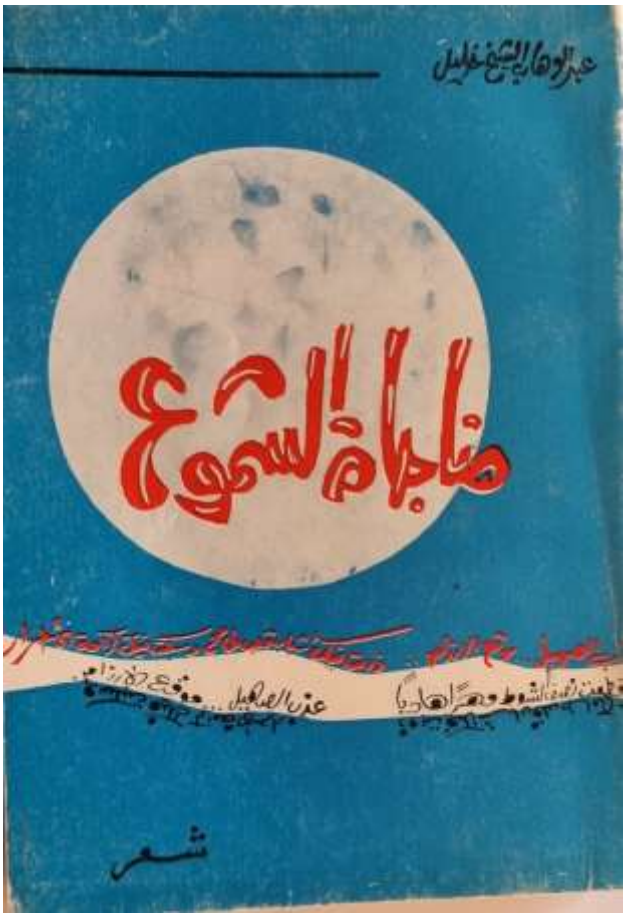

ثمّة تناسب لونيّ يعكس راحة بصريّة عند التلقّي الأوّل لغلاف الديوان، و قد أسّست هذه الراحة البصريّة على اختيار زرقة السماء و بياض غيومها لتشكّل الفضاء التشكيليّ لما بين دفتي الغلاف، مع إثارة جسّدها اختيار اللّون الأحمر للعنوان، متناوباً مع اللّون الأسود، في تسجيل بيتين، اختيرا قصداً، هما ضرام النار و دخانها الأسود، فكأنّنا أمام حالة احتراق مستمرّة، ما تلبث أن تنطفئ حتى يشتد أوارها من جديد، و هذه بؤرة دلاليّة يحيل عليها العنوان أيضاً. و البيتان مختاران من قصيدتين في رثاء نجل الشاعر، و اسمه " معتز "، الذي توفّي آن أشرف على سنّ الشباب و أورق فيه الأمل.

يقول في أحدهما[1]:

ذوّبت فيكَ شبابَ قلبٍ طامح و سكبتُ فيكَ كرامة الأحرارِ

و يقول في الآخر[2]:

وقطعتَ نصف الشوط مهراً هادباً عذْبَ الصهيلِ..موقّعَ الإرزامِ

و يلاحظ التناوب اللونيّ بين الأحمر و الأسود في كتابتهما، كما يلاحظ أيضاً التناوب في طريقة الكتابة من اليمين إلى اليسار، و بالعكس.

و لعلّ ذلك انعكاس لنار تعتمل في صدر الشاعر، أمّا تمظهرها فلا تحدّه أطر أو طرائق أداء.

- مقدّمة الديوان و شهادة الأقران:

افتُتح الديوان بمقدّمة، " بقلم الأديب الكبير الأستاذ شوقي الكيلاني "، و هي مقدّمة تقريظيّة مدحيّة للشاعر، الذي يبشّر بتجربة شعريّة ناضجة، تمكّن صاحبها من أدواته الفنيّة، و تمرّس في الحياة، فكان قادراً على بلورة تجاربها شعراً. و ممّا جاء في المقدّمة قول الكيلاني: "هذا الديوان باكورة شاعر عصامي استطاع بجدّه و دأبه أن يكوّن نفسه و ينمي مواهبه و يبرز شخصيته على الرغم مما أحاط به و اعتراه من مشاكل الحياة و متاعبها و أعبائها التي ذللها بجرأة إرادته و صدق عزيمته و قوّة إيمانه. على أنّ بعضها لو اعترى غيره لكان كافياً لإخماد جذوته و إطفاء شعلته و تنغيص حياته"[3]. و من أوضح ملامح التقريظ في هذه المقدّمة، التعابير الوصفيّة الجاهزة، للشاعر و لتجربته الشعريّة، من مثل: " عصامي "، و " صدق عزيمته و قوّة إيمانه"، و غيرها الكثير.

1 - الشيخ خليل، عبد الوهاب: مناجاة الشموع، ص110.

2 - نفسه، ص117.

3 - نفسه، ص7.

و يؤدّي هذا النوع من خطاب المقدّمات و ظائف غير فنيّة غالباً، إذ ينحاز إلى الإشهار، و إعطاء قيمة للمقدَّم له، هي في الأصل مبنيّة على قيمة المقدِّم و مكانته، لذلك كانت عتبة المقدّمة مسبوقة بعبارة: بقلم الأديب الكبير الأستاذ شوقي الكيلاني. فدالّ " قلم " يحيل على الحذق و التمرّس، و على " المعلّم " الذي يخطّ ما يوري زند قريحته بصدق و أمانة. و بقية الدوالّ لا تخفي ظلال معاني الرفعة و الكمال و بلوغ شأو أهل العلم و الاختصاص و المعرفة العميقة الدقيقة.

و تبدو شهادة الأقران – التي صدرت عن الشاعر محمّد منذر لطفي– تعزيزاً للتقريظ و المدح اللذين قامت عليهما مقدّمة الديوان، و قد أُثبتت على صفحة الغلاف الثانية من الداخل، مشفوعة بصورة شخصيّة للشاعر، تقرأ فيها علامات الفتوّة و القوّة و الاكتمال، و هي صفات شعره أيضاً.

كانت السمة التوصيفيّة، لا المعياريّة، هي منطلق اللغة التي نُسج على منوالها خطاب هاذين المصاحبين النصيّين، و قد أشارت تلك اللغة إلى عمق المعاناة التي فجّرت ينابيع الشعر ثرّة غنيّة عند عبد الوهاب الشيخ خليل، الذي اعتمد المدرسة الكلاسيكيّة أطراً لقصائده، فجاء المضمون عنده واضح الفكرة، صادق العاطفة، قريب الصور، سهل الألفاظ[1].

كما أشارت أيضاً، إلى أنّ " شعره فياض بالروح الوطنية و القومية فهو يتغنى بالتضحية أينما وجدت أو سمع بها و بالرجولة حيثما كانت، و يبارك كل حركة من شأنها أن توحد كلمة الأمة و تجمع شعثها"[2].

– توطئة بعض القصائد:

تتحدّد التوطئة بما يذكره الشاعر، قبل النص المتن، من خطاب يحيل على مناسبة القصيدة، أو المحفِّز المباشر على إبداعها؛ أو رسالة وجدانيّة تضمر التعاطف أو النفور.

1 – التوصيف للشاعر محمد منذر لطفي، في صفحة الغلاف الثانية من الداخل.

2 – التوصيف من المقدّمة التي كتبها الكيلاني، ص9.

و بذلك تهيّئ القارئ لتلقّي النص، و تضعه في جوّه النفسيّ العام. و قد صاحبت التوطئة ثماني عشرة قصيدة من مجموع قصائد الديوان البالغة ثلاثاً و أربعين قصيدة، بنسبة تقريبية هي اثنتان و أربعون بالمئة. و هي نسبة ليست قليلة، و تعكس حرص الشاعر على التلقّي الذي يحقّق مقصديّته من إنتاج النص، و يوصل رسالته الوجدانيّة بحاملها الفكريّ الذي قامت عليه.

و يمكن أن تؤدّي التوطئة وظائف أخرى، بحساب سياق تداولها، فتزيد تفاعل المتلقّي مع النص، و تصعّد دراميّتة أحياناً، و تبرز أثر المصاحِب النصي في توضيح موقف الشاعر من الموضوعات التي يعالجها، و تزيد النصوص غنىً دلاليّاً بفتح آفاقها على رحاب أوسع، تغني فضاءها التخييليّ؛ " لأنّها تبرز جانباً أساسياً من العناصر المؤطرة لبنية النص الشعري، و لبعض طرائق تنظيمه، و تحقّقه التخييلي "[1]؛ إذ تعيد مرجعيّة الدلالة و مركزيّتها إلى التوطئة التي مهدت لدخول النصّ. يقول في توطئة قصيدة " يا أيها النسر المدلّ ": " راح المذيع في محطة دمشق يسأل الطيار البطل العقيد عدنان الحاج خضر الذي فقد ساقيه في حرب تشرين التحريرية عن قصة أسره فقال: عندما سقطت طائرتي وجدت نفسي مرمياً قريباً منها و قد بترت ساقي إلا قليلا منها؛ و الطائرة تلتهمها النيران، و لما حاولت الابتعاد عن الطائرة أعاقتني ساقي، فأخرجت سكيني و حززتها و رميت بها بعيداً.. و قلت لها: إني أزرعك في أرض أجدادي لتنبتي المزيد من الثارات، فقال المذيع: إنك بطل يا عدنان. فأجاب عدنان: لا.. لست بطلاً.. و لكني مجرد مقاتل عربي..! و كنت أسمع المقابلة.. ففاضت عيناي و كانت هذه القصيدة"[2]. توضح هذه التوطئة أثر المصاحب النصي في تصعيد انفعال المتلقي، و تثري النص في مركزيّتها من عمليّة التلقي، فهي حاضرة مع كلّ بيت من أبيات القصيدة كلّها، لذلك تبدو فاعلة في إنتاج النص، و في توجيه دلالتة، كما تسهم في إنشاء فضائه التخييلي أيضاً؛ لأنّها المصدر الواقعيّ لموضوعه، و لمكوّنه الفكريّ.

1 – أحمد، مرشد: جماليات التعتيب النصي في شعر الحداثة، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2020، ص10.

2 – الشيخ خليل، عبد الوهاب: مناجاة الشموع، ص46.

و من هذا القبيل يمكن أن تكون توطئة قصيدة " شمعة العمر المعذّب "، التي تقول:" و شاءت الأقدار أن أعيش فترة أطول في الفجيعة و الرثاء فقتل ولدي الحبيب " معتز " بصدمة سيارة غادرة بعد أن أشرف على الشباب و أورق به الأمل. و كان ذلك يوم الاثنين في 1973/7/2. فبكاه القلب و رثاه الجنان بقصائد كثيرة سأقتصر على بعضها"[1]. تتخلّى بعض دوال التوطئة هذه عن حياديّتها في وصف الواقعة التي دفعت الشاعر إلى التجاوب مع الحدث و الانفعال به شعريّاً، و لعل أبرز هذه الدوال، هو ما وصف حادث السيارة بالقتل، ليكون مسبّبه و فاعله قاتلاً، و من ثمّ فالنصّ يرثي قتيلاً، و هذا يستحضر إلى الذاكرة ما قامت عليه شعريّة الرثاء في القصيدة العربية القديمة، من بكاء و تفجّع و وصف لمآثر القتيل، و أثر الفقد في الذات الشاعرة. و ربما جعل ذلك من التوطئة مهاداً لدخول ما يشبه الطقس الجنائزيّ، فبدت بأحد مضمرات الخطاب، أداة ثأر للقتيل ممّن أقدم على هذا الفعل الغادر.

و لو تتبّعنا المصاحبات النصيّة، ممثَّلة بالتوطئة، لوجدنا كيف تُشكّل في الديوان أحد الحوامل الفكريّة الرئيسة التي تبلور الموقف الفكريّ للذات الشاعرة من موضوعها، و لعل في الجدول الآتي ما يوضّح هذه الخصّيصة:

القصيدة	التوطئة
مع الحدث الكبير	في عام 1971 قامت دولة الاتحاد بين سوريا و مصر و ليبيا، و قد أقام المركز الثقافي بحماة مهرجانا شعريا كبيرا بهذه المناسبة شاركت فيه بهذه القصيدة
الفارس الجريح	ذلك الفدائي الفلسطيني
زغاريد إلى القنيطرة	عندما زحفت قافلة السيارات العربية إلى القنيطرة المحررة و شاهدت على التلفزيون الرئيس حافظ الأسد يرفع العلم السوري فيها كانت هذه الزغاريد أو هذه الدموع "عبد الوهاب"
الثلج أو اللحن الحزين	في صبيحة اليوم الأول من عيد الأضحى في 1973/1/14 غطت الثلوج بلادنا و كان هجوم الصهاينة اللئام قبل ثلاثة أيام على قرى حوران الآمنة بشكل وحشي قد تسبب بقتل عدد كبير من الأبرياء .. و الثلج و تذكر الاعتداء أوحيا هذه

1 – نفسه، ص108.

	القصيدة
في ذكرى أبي الفداء يا أم أشبال الفداء	في 1974/11/24 أقام المجلس الأعلى للعلوم و الفنون مهرجانا علميا و أدبيا في حماة، بمناسبة مرور سبعمئة سنة على وفاة المؤرخ الكبير "أبي الفداء" صاحب حماة، و من وحي ذلك المهرجان كانت هذه القصيدة في 1975/11/30
مرثية القائد عبد المنعم رياض	طيَّب الله ثراه
لمياء شكري	بينما كانت الطالبة لمياء شكري تقف على السبورة و تجيب على أسئلة المدرسة فاجأتها نوبة قلبية عقدت لسانها ثم صرعتها على بلاط الغرفة فانسفحت كزجاجة عطر..
أطلت	و بعد عام من وفاة لمياء شكري ذكرني والدها أن رفيقاتها يتقدمن للفحص و أن والدتها تعيش هذا الشعور، فكانت هذه القصيدة
هذا كتابك	و بينما كنت أدرس مادة النحو أخذت كتاباً من أحد التلاميذ فإذا به كتاب : "معتز" كتب عليه اسمه و بعض الجمل الصحيحة التي تدل على ذكائه، فاعتراني خدر..و كدت أفقد وعيي لولا أن أعانني الله على التماسك، فخرجت من الصف لأكتب هذه الأبيات
تحية الإباء	مهداة إلى الشاعر المجاهد الأستاذ سعيد خلوف جرابات
من القلب	في 1973/12/31 احتفل مدرسو محافظة حماة بتكريم الأديب الكبير الأستاذ شوقي الكيلاني بمناسبة بلوغه الستين. و قد شاركت بهذه القصيدة معبرا بها عن شعوري نحو أستاذي الكريم
سلام القلب	كان صديقي الشاعر عبد الرحمن نعيمي بمدينة الأغواط في الجزائر فأمضني الشوق إليه فأرسلت إليه هذه القصيدة في 1968/5/14
دموع العرفان	عندما حمل الصديق الشاعر محمد حسن المنجد إلى المشفى لإجراء عملية جراحية كانت هذه القصيدة
اعتذار	مهداة إلى الشاعر سعيد قندقجي أرسل الشاعر سعيد قندقجي و هو الصديق الحبيب رسالة عتاب من الجزائر يقول فيها: فيا أبا الخير يا من كان يؤثرني بحبه كيف ترميني بإهمال أغرك الدهر أن أصبحت منتخباً الحمد لله أن لم تنتخب والي
الوحي علمك البيان	مهداة إلى الشاعر الدكتور وجيه البارودي بمناسبة تكريمه لبلوغه السبعين
ذكرى	من وحي عيد المعلم

يضمر خطاب التوطئة مفهوم الشعر من منظور الذات الشاعرة، فهو وحي، و معلِّم للبيان، و هو ترجمة للأحاسيس، و تعبير عن المواقف، و هو أيضاً تعاطف، و مشاركة

وجدانية عميقة في الأحداث الخاصة، و المواقف العامة. و هو رسالة فكريّة و سياسيّة أحياناً، و هو رؤية شاعر يعيش مع الناس، و يحكي آلامهم و طموحاتهم؛ لذلك تكثر عند الشاعر المشاركات في المهرجانات الاحتفاليّة و الاحتفائيّة، إذ يرى في صوته معبّراً عن ضمير الجماعة، و كأنّه الواحد المتعدّد. و هذا الوعي الشعريّ جعل في نصّه حرصاً على إنتاج طرق الأداء الشفهيّة، القائمة على الإنشاد و التطريب و تجويد الإيقاع الخارجي، مع اختيار " سهولة اللفظ نطقاً و ذلاقته نَسَقاً مُمْتَدًّا، و غلبة المحاورة و الخطاب الذي يبعث الحيوية و التلقّي، و كثرة المبالغة و إثارة العواطف و بثّ الحماسة"[1].

- تأريخ القصائد:

من المصاحبات النصيّة البارزة في ديوان " مناجاة الشموع " تقييد القصائد، بعد إثبات متنها، بتأريخ كتابتها، إلاّ في نصّين اثنين، هما: "زغاريد إلى القنيطرة"، التي تنبئ توطئتها عن تأريخها، كما يبيّن الجدول السابق. و بذلك يكون التأريخ حاضراً عبر التوطئة، و كأنّ هذا المصاحِب يبرز مدى اهتمام الشاعر بالحدث، و عنايته بتوثيقه، و موقعه من الوجدان الجمعيّ؛ إذ سيشكّل هذا الحدث منطلق تحوّل يدعو إلى الحرص على إحياء ذكراه، عبر الاحتفاء به، من خلال استعادة وقع الحدث بوساطة التاريخ.

و النص الثاني، غير المقيّد بتأريخ، هو قصيدة موسومة بعنوان " إليها "، و هي تجربة نصيّة ليست مقيّدة بمعطىً زمانيّ مباشر، إنّها حالة انفعال بـ "سراب"، ظلّ الشاعر يناجي طيف أنثاه من خلاله، عصارةَ عمره.

و يبدو حرص الشاعر على هذا المصاحب النصيّ توكيداً للجانب الذي يتّخذ من الواقع مصدراً للإبداع، فمعايشة الموضوعات واقعيّاً كانت دافعاً أصيلاً إلى إنتاج الشعريّة، و بذلك لا تبدو النصوص تهويمات خيال، أو مسّاً من جنون، أو مقطوعة الصلة بالواقع، إنّها تحاكي الواقع بريشة الفنان التي تحرّكها في يده سبحات الخيال الشعريّ.

1 – قدّور، أحمد محمّد: صور من التحليل الأسلوبي و دراسات في النص و التناص و الدلالة، دار الفرقان للغات، حلب، ط1، 2015، ص65.

الخاتمة و نتائج البحث:

لا يخلو البحث في شعريّة النص من فتنة الالتفات إلى ما يكسب التجربة الشعريّة خصوصيّة، ربما لا تكون في حسبان الشاعر ذاته، فيحمل الدارس تبعة ما يثيره من قضايا، قد لا تكون قصديّة، من منظور المبدع. و لعلّ هذا شأن بعض المصاحبات النصيّة، التي وقفنا عليها في ديوان " مناجاة الشموع " للشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، ممّا يعني براءة الشاعر من المقاربة النقديّة، التي توجّهها اهتمامات الدرس النقديّ، لا مقصديّة الشاعر، و إن كان بعضها يدور في فلك مقصديّته غير المصرّح بها في كثير من المواقف. و لا ضير في ذلك، ما دامت القراءة النقديّة تستند إلى جهاز مفاهيميّ قادر على سبر أغوار النصّ عبر مصاحباته، مقصية أحاديّتها و فرادتها، معلنة انفتاحها على المتعدّد المختلف.

و يمكن تلخيص أبرز نتائج البحث بالنقاط الآتية:

– لا تقف مقولة " المقصديّة " عائقاً في وجه دراسة المصاحبات النصيّة؛ فما يوجّه التلقّي لا يستند بالضرورة إلى مرجعيّة ما أراده الشاعر، على أهميّته، بل يتجاوز ذلك إلى فضاء تأويليّ، يرسم القارئ آفاقه و حدوده، في إطار ممكنات التأويل، و الثراء الدلاليّ للنصّ.

– لا يشكّل البحث في المصاحبات النصيّة بديلاً من الدرس النقديّ، و لا يلغي فاعليّة النقد في تحليل النصوص، و لعلّ دوره الأساس ينطلق من إضاءة بعض الجوانب، التي كانت بعيدة عن التناول النقديّ، قد تكسب النص حيويّة و انفتاحاً.

– تتوجّه قراءة كثير من المصاحبات النصيّة في ضوء بيان أثر التقنيّة و تطوّر الطباعة و صناعة الكتاب في تنتيج الدلالة، و مدّ جسور التواصل بالمتلقّين، على اختلاف اهتماماتهم و تكويناتهم العلميّة و المعرفيّة.

المصادر والمراجع

- **أحمد، مرشد:**
- المصاحبات النصية في روايات نبيل سليمان، دار الحوار، اللاذقية، 2018.
- جماليات التعتيب النصي في شعر الحداثة، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2020.
- **بلعابد، عبد الحق:** عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم سعيد يقطين، منشورات الاختلاف، الجزائر، و الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2008.
- **جاكبسون، رومان:** قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي و مبارك حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1988.
- **حسين، خالد:** في نظرية العنوان مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، التكوين للتأليف و الترجمة و النشر، دمشق، 2007.
- **ساعي، أحمد بسام:** حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1978.
- **السح، رضوان:** الشعر و قيمة الصدق في سماط الروح، بحث منشور ضمن: – مجموعة من الباحثين: مع الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، أدباء مكرّمون (35)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.
- **سكّر، راتب:**
- أسماء على ضفاف العاصي، دار المنار، صنعاء، 1999.
- عبد الوهاب الشيخ خليل شاعر و إنسان من ربوع العاصي، دار أبي الفداء العالمية، حماة، 2011.
- **الشيخ خليل، عبد الوهاب:**
- مناجاة الشموع، المطبعة الحديثة، حماة، 1978.
- سماط الروح، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

- **عويس، محمد:** العنوان في الأدب العربي النشأة و التطور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1988.
- **قدّور، أحمد محمّد:** صور من التحليل الأسلوبي و دراسات في النص و التناص و الدلالة، دار الفرقان للغات، حلب، ط1، 2015.
- **قطوس، بسام:** سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمّان، الأردن، 2001.
- **كوهن، جان:** بناء لغة الشعر، ترجمة: محمد الولي و محمد العمري، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986.
- **لحمداني، حميد:** عتبات النص الأدبي(بحث نظري)، مجلة علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، الجزء46، المجلد12، ديسمبر 2002، ص11.
- **محمّد، عبد الفتاح:** المرأة في شعر عبد الوهاب الشيخ خليل، بحث منشور ضمن: - مجموعة من الباحثين: مع الشاعر عبد الوهاب الشيخ خليل، أدباء مكرّمون (35)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2008.